﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾ [الحج: 62]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الحقُّ مَن كَمُلتْ قـدرتُـه وتـمَّ عـلـمُـه، وكـلُّ ما دونـه باطلٌ يختلُّ ويتخلَّف

ذلك الوَصفُ الَّذي تَقدَّمَ ذِكرُه من كمال القدرةِ على إيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ، وإيلاجِ النَّهارِ في اللَّيلِ، ومن تمام العِلْمِ المحيط، إنَّما حَصَل لأجْلِ أنَّ اللَّهَ ﷻ هو الحقُّ الذي لا مرية فيه، فلا جَرَمَ أتَى بالوَعْدِ والوعيدِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: (حقّ) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصحَّته، فالحقُّ: نقيضُ الباطل[2]، وأصلُ الحقِّ: المطابقةُ والموافقةُ، وجمعه: حُقوق وحِقاق، وحَقَّ الأمر: وجَبَ، ومن معاني الحقِّ: الصِّدقُ، والعدلُ، والإسلامُ، وأمْرُ النَّبي ﷺ وما أتى به من القرآن[3]، أيْ: كلُّ ما طابقَ ووافقَ تعاليمَ الإسلام، و﴿ٱلۡحَقُّ﴾ في الآية: المُطابِقُ للواقعِ، أي: الصِّدق، والمعنى: أنَّه سبحانه هو الحَقُّ في الإلهيَّة[4].

2) ﴿يَدۡعُونَ﴾: (دعو) أصلٌ واحِدٌ، وأصلُ الدُّعاءِ هو أنْ تُميلَ الشَّيْءَ إليكَ بِصَوْتٍ وكلامٍ يكونُ منكَ[5]، ومعناه المحوريُّ: جذبُ الشَّيءِ أو محاولةُ ضمِّه إلى حيِّزٍ أو أمرٍ، كجذبِ النّاس إلى الوليمةِ والاجتماع، والسَّوقِ إلى الأميرِ، ومنه الدُّعاءُ بمعنى التَّضرُّعِ إلى اللّه ﷻ في طلبِ أمرٍ، والرَّغبةِ إلى اللّهِ تعالى فيما عنْدَه مِنَ الخيرِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 246.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(3) الزَّبيديُّ، تاج العروس، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (حق).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 316.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).

والابْتِهال إليهِ بالسُّؤالِ، والدُّعاءُ: العبادة؛ لأنَّ العبادةَ تَقرُّبٌ إلى المعبودِ واعتزاءٌ إليه واستكفاءٌ به[1]، ومعنى ﴿يَدۡعُونَ﴾ في الآية: يعبدون[2].

3) ﴿ٱلۡبَٰطِلُ﴾: (بطل) أصلٌ واحدٌ، هو ذَهابُ الشَّيْءِ وقِلَّةُ مُكْثِهِ ولُبْثِه، وسُمّيَ الشَّيْطانُ الباطِلَ؛ لِأنَّهُ لا حَقيقَةَ لأفْعالِهِ[3]، وبَطَل الشيءُ يَبْطُل بُطْلًا وبُطولًا وبُطْلانًا: ذَهَبَ ضَياعًا وخُسْرًا، فهوَ باطِل، والباطِل: نَقيضُ الحَقِّ، وهو ما لا ثَباتَ لَهُ عندَ الفَحْصِ عَنهُ، وأبْطَلَ فُلانٌ: جاءَ بِكَذِبٍ، وادَّعى باطِلًا، والإبْطالُ: يُقال في إفْساد الشَّيْءِ وإزالَتِه، حَقًّا كان ذلك الشَّيْء أو باطِلًا[4]، ومعنى ﴿ٱلۡبَٰطِلُ﴾ في الآية: الأصنامُ والأندادُ والأوثان، وكلُّ ما عُبد من دونه تعالى؛ فهو باطلٌ[5].

4) ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾: (علو) أصلٌ يدلُّ على السُّموِّ والارْتِفاعِ، والعَلاءُ: الرِّفْعَةُ، والعُلُوُّ: العَظَمَةُ والتَّجَبُّرُ، ويُقالُ لِكُلِّ شَيْءٍ يَعْلو: عَلا يَعْلو، فإنْ كانَ في الرِّفْعَةِ والشَّرَفِ؛ قيل: عَلِيَ يَعْلَى[6]، والعُلْوُ: ضدُّ السُّفْل، والعَليُّ من أسماء اللّه: الشَّريفُ، وهو بِمَعْنَى العالي، وهو الَّذي ليس فوْقَهُ شَيْءٌ[7]، والعَليُّ: هو الرَّفيعُ القَدْرِ من عَلِيَ، وإذا وُصفَ اللّهُ تعالى به في القرآن؛ فمعناه: يَعلو أنْ يحيطَ به وصفُ الواصفينَ، بل علمُ العارفين[8]، فهو المتعالي عن مدارِكِ العقولِ، وعن سماتِ الحدوثِ، أو المرتفعِ على كلِّ شيءٍ بقهريته، أو المتعالي عن الأندادِ والأشباه[9].

5) ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾: (كبر) أصلٌ يدلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ، يُقالُ: هو كَبيرٌ، وكُبارٌ، وكُبّارٌ، والكِبْرُ: العَظَمَةُ[10]، والكِبْرُ: الرِّفْعَة والشَّرَفُ، والكِبْرُ: العَظَمَةُ والتَّجَبُّر، كالكِبْرياء، ومعنى الكَبير في أسْماءِ اللّه تعالى: العَظيمُ الجَليلُ، والمُتَكَبِّر الَّذي تَكَبَّر عَنْ ظُلْمِ عِبادِهِ، وقيل

(1) الزبيدي، تاج العروس، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (دعو).
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 17/ 136.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطل).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بطل).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 284.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (علو).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (علا).
(8) الراغب، المفردات: (علا).
(9) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 549.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).

الكَبيرُ: العَظيمُ ذو الكِبْرياءِ، وقيلَ: المُتَعالي عَنْ صِفاتِ الخَلْقِ، وقيلَ: المُتَكَبِّرُ عَلَى عُتاةِ خَلْقِه[1]، والكبيرُ شأنًا وعظمةً وكبرياءً؛ إذ كلُّ شيءٍ يصغرُ دون كبريائه، فلا شيءَ أعلى منه شأنًا وأكبرُ سلطانًا؛ لأنَّ له الوجودَ المطلق[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّعريفُ به ﷻ أخذ سمةَ التَّدريج

ذلك الفعلُ من إيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ، وإيلاجِ النَّهارِ في اللَّيلِ واتِّصافِ اللهِ سبحانَه بكمالِ القدرةِ وتمامِ العلمِ؛ لأنَّ اللهَ هو الإلهُ الحَقُّ الذي لا مثلَ له ولا شريكَ ولا ندَّ، ولا تنبغي العبادةُ إلّا له، وأنَّ ما يدعوه المُشركونَ إلهًا من دونِه مِنَ الأصنامِ والأندادِ هو الباطِلُ الذي لا يَنفَعُ، ولا يَضُرُّ، ولا يقدرُ على صنعِ شيءٍ، بل هو المصنوعُ، وأنَّ اللهَ ذو العلوِّ على كلِّ شيءٍ، وهو فوقَ كلِّ شيءٍ، وكلُّ شيءٍ دونه، العظيمُ الذي كلُّ شيءٍ دونه، ولا شيءَ أعظم منه[3]، فهذه الآيةُ من تمامِ ما قبلها، والكلُّ يجري في سِلْكِ التَّعريفِ به سبحانه وبحمده.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

تعليلٌ كافٍ وضمانٌ شافٍ لانتصارِ الحقِّ وهزيمةِ الباطلِ

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ عن الآية قبلها ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، ولم يربطْ بينهما بعاطفٍ؛ لِما بين الجملتَيْن من كمالِ الاتِّصال؛ لأنَّ اسمَ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو تكريرٌ لاسمِ الإشارة الذي سبقَهُ، وقد أخبرَ عنه بسببٍ آخرَ لنصرِ المؤمنين على المشركين بأنَّ اللهَ هو الرَّبُّ الحقُّ الذي إذا أرادَ؛ فعلَ، وقدرَ، فهو ينصرُ أولياءَه، وأنَّ ما يدعونه من دون اللهِ هو الباطلُ، فلا يستطيعون نصرهم، ولا أنفسهم ينصرون[4]، وتكرارُ

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (كبر).
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 549.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 676.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 316.

الإشارةِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ بعد أن ذُكِر مرَّتَيْنِ جعَل لآيات هذا السّياق سَمْتًا خاصًّا بها، وأظهر وجهًا من وجوه تماسكِ عناصرها وترابطها.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة وإيثار ما دلَّ على البُعد:

سبحانَ العليِّ في ذاته القريب مِن عباده

اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ يشيرُ إلى القدرةِ على إيلاجِ الليلِ في النَّهارِ وإيلاج النَّهارِ في الليلِ، وإلى العلمِ المحيطِ بكلِّ ما في الكون، والبدءِ والخوضِ في معنًى جديدٍ بعد إتمامِ المعنى السّابق، وهو إثباتُ حقّيَّةِ اللّهِ بالعبادةِ، وبطلانِ ما يدعونَ من دونه، أيْ: ذلك الاتِّصافُ بتمام القدرة وشمول العلم، وإيثارُ الإشارة التي تدلُّ على البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتْبَةِ قدرةِ اللّهِ وعِلْمِه[1]، بما يُؤكِّدُ انتصارَ الحقِّ وهزيمة البغي، ودلالةٌ على توحيدِه بصنعِه[2]، فلا يليق بمرجعِ الإشارة إلّا الدالُّ على البُعْد؛ لا سيَّما في سياق الاستدلال، والتَّعريف به ﷻ.

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِأَنَّ﴾:

إذا قَوي الدَّليلُ؛ صارت النَّتيجةُ دليلًا

تحتملُ الباء في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أنْ تكونَ للتَّوكيد، أي: توكيدِ أحقيَّةِ اللّه بالألوهيَّةِ دون أصنامهم؛ إذ يصحُّ أنْ يُقال: (ذلك أنَّ اللّهَ هو الحقُّ) أو للسَّببيَّة، والمعنى: ذلك الوصفُ بخلقِ اللَّيلِ والنَّهارِ والإحاطةِ بما يجري فيهما، وإدراكِ كلِّ قولٍ وفعلٍ، بسَبَبِ أنَّ اللّهَ هو الإلهُ الحقُّ الثّابتُ في الإلهيَّة، الذي يَستحقُّ العبادةَ وحْدَه دونَ ما سِواه، وأنَّ كلَّ ما يُدعى إلهًا دونه باطلُ الدَّعوةِ، وأنَّه لا شيءَ أعلى منه شأنًا وأكبرُ سلطانًا[3].

احتمالُ أن تكونَ الباء للإلصاق أو بمعنى اللام

ويُحتمل أن تكون الباءُ للإلصاق[4]، ويكون في الآيةِ حذفٌ، والتَّقديرُ: ذلك دليلٌ واضحٌ مُلابِسٌ لحقيَّةِ إلهيَّةِ اللّه، وهذه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 117، والبقاعي، نظم الدُّرر: 5/ 169.
(2) تفسير مُقاتل بن سليمان: 3/ 116.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 168.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 182.

الملابسةُ ملابسةُ الدليلِ لمدلوله، وهذا أرشقُ من حملِ الباءِ على معنى السببيَّة[1]، أو أنْ تكونَ الباءُ بمعنى اللّام، كما ذكرَ أبو حفص النَّسفيُّ، أيْ: لأنَّ اللّهَ هو الحقُّ[2].

فائدةُ تتابعِ المؤكِّدات في ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾:

النَّفْسُ المتُشبِّعةُ بـأنَّ الـلـه هو الحقُّ لا ترتاب في وعده

أكَّد البيانُ القرآنيُّ أحقيَّةَ اللّهِ بالألوهيَّة دون أصنامهم الباطلة في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ بعدَّة مؤكِّدات من (أنَّ) التي تفيدُ التَّوكيد، والجملةِ الاسميَّة التي تفيدُ الثُّبوتَ والدَّوامَ، وضميرِ الفصلِ ﴿هُوَ﴾ الذي يفيدُ القصرَ؛ لإفادةِ المبالغةِ في ضمانِ اطِّرادِ سُنَنِ الكونِ وثباتها، وعدمِ تخلخلها أو تخلُّفها، ومن هذه السُّنَنِ انتصارُ الحقِّ والعدل، وهزيمةُ الباطلِ والبغي، وأنَّ اللّهَ لن يدَعَ البغيَ يستعلي، والظُّلمَ يستطيلُ، ومعنى كونِهِ تعالى هو الحقَّ هو معنًى مِن شأنه أن يُروِّع النَّفس الإنسانية، ويلفتها، ويهُزَّها مِن داخلِها، فإذا داخَلَها؛ تمكَّن فيها، ورسخ، وانتشر في جميع أجزائها، فصار كالدم فيها وكالرّوح.

بلاغةُ القصرِ بضمير الفصلِ:

بالقصرِ يتَّسِعُ المعنى في النفس ويرسخ

ضميرُ الفصل ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ يفيدُ القصرَ، وهو قَصرٌ حَقيقيٌّ[3]، أي: هو وحده الحقُّ، أي: الواجبُ الوجود[4]، فلا حقَّ غير اللّه، فكلُّ ما عداه باطل؛ لأنَّه إلى فناءٍ[5]، وفيه دلالةٌ على أنَّ الحقَّ مِن أسماءِ اللّهِ الحُسنى، وهناك من عدَّ هذا الضميرَ توكيدًا؛ إذ يصحُّ الكلام: ذلك بأنَّ اللّهَ الحقُّ، ومنهم من عدَّه مبتدأً[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 204.
(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 2/ 171.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 316.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 82.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5017.
(6) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 947.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

هو الحقُّ، والحقُّ هو

لامُ تعريف ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ - في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ - جنسيَّةٌ[1]، أيْ: جنسُ الحقِّ، وهو المطابقُ للواقعِ، أي: الصدق، وهو مأخوذٌ من حقَّ الشيءُ؛ إذا ثبتَ، والمعنى: أنَّه الحقُّ في الإلهيَّة[2]، فلا مثلَ له ولا شريكَ ولا ندَّ، أيْ: إنَّ اللهَ هو الموجودُ الواجبُ لذاته الذي يمتنعُ عليه التَّغيُّر والزوالُ[3]، فالحقُّ هو الوجود.

معنى الواو في: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ﴾:

من كمال ظهور الحقِّ كمالُ ظهورِ الباطل

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو المجرور بالباء ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، والمعنى: ذلك الدَّليلُ ملابِسٌ لكونِ اللهِ إلهًا حقًّا، ولكونِ ما تدعونَ من دونه باطلَ الإلهيَّةِ، ولكونِ اللهِ هو العليَّ الكبير، هذا باعتبارِ أن الباء في قوله: ﴿بِأَنَّ﴾ للملابسة، وتكون جملةُ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ إلى آخرها في موقعِ النَّتيجةِ وضوحًا، وأمّا إذا اعتُبرتِ الباءُ سببيَّةً؛ فيكون المعطوفُ عليه هو الخبر، وهو مجموعُ قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، والتقدير: (ذلك لأنَّ اللهَ هو الحقُّ، وأنَّ ما تدعونَ من دونه الباطل)[4].

فائدةُ تتابعِ المؤكِّدات في ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ﴾:

دلائلُ إثباتِ الحقِّ دلائلُ لإثبات الباطل

أكَّد البيانُ القرآنيُّ الخبرَ - وهو بطلانُ ما يعبدون من دونِ اللهِ من الأوثانِ وغيرها - بعدَّةِ مؤكِّداتٍ: حرفِ التوكيد ﴿أَنَّ﴾، والجملةِ الاسميَّةِ التي تفيدُ الثبوتَ والدَّوام، وضميرِ الفصل ﴿هُوَ﴾ المفيدِ للقصرِ الادِّعائيِّ، وضميرِ التَّوكيد ﴿هُوَ﴾ على قولِ العُكبُري[5]،

(1) ابن عاشور، التحرير: 21/ 187.
(2) ابن عاشور، التحرير: 17/ 316.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 246.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 188.
(5) العُكبُري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 947.

وذلك تصويرٌ لكمال ظهور بطلانِ استحقاقِ آلهتهم للعبادةِ؛ لكونها معدومةً في حدِّ ذاتها، واستمرارِ عجزها وتغيُّرها وزوالها، وعدمِ قدرتها على النَّفعِ والضُّرِّ في الدنيا والآخرة، وأنَّ هذا الباطل ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [غافر: 43]، وأنَّه بلغَ الغايةَ في كمالِ بطلانه، وشموله لكلِّ ما يدعونَ إليه من دون اللّه.

معنى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾:

﴿مَا﴾ لغير العاقل، قد عبَّرَ اللّهُ بها عنِ الآلهة التي يعبدها المشركون من دون اللّه تعالى، وهذا توصيفٌ لحالها، وإشارةٌ إلى سوءِ حالهم؛ إذ هم العقلاءُ، ويدعونَ ما لا يعقلُ، يقول الآلوسي: "وأمرُ التَّعْبيرِ عَنها بِـ﴿مَا﴾، ثُمَّ إرجاعُ ضَميرِ العُقَلاءِ - وهو الواو في يدعون - إلَيها ظاهِرٌ، فلا تَغْفُلْ"[1]، وهي اسمٌ موصول بمعنى (الذين)، عُبِّرَ به؛ لقصدِ الإبهامِ الذي من أسراره التَّشويقُ للمبيَّن، وهو ما يدعونه من دونِ اللّه، ولقصدِ التَّعميم، ليشملَ كلَّ مدّعوٍّ دونَ اللّهِ سبحانه من الأصنام والشياطين وغيرها[2]، أي: بيانٌ لعمومِ بطلانِ ما يدعونَ من دونِ اللّه، ولو عبَّرَ بالاسمِ الظاهر؛ لاقتصرَ عليه.

تمكينُ المعنى من الإحسان إلى المعنى والمتلقّي

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿مَا يَدْعُونَ﴾:

الاسمُ الموصولُ ﴿مَا﴾ وصلته ﴿يَدْعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ في محلِّ نصبِ اسم (أنَّ)؛ والتقديرُ: (وأنَّ الذي يدعونه هو الباطل)[3].

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارع في قوله: ﴿يَدْعُونَ﴾:

التَّعبيرُ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ عبادةِ المشركين للآلهةِ المزعومةِ التي لا تسمعُ، ولا تعقلُ،

تجاهلُ الأدلَّةِ الحقَّة شذوذٌ في العقل والقلب والنفس

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 182.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 18/ 406.
(3) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 199.

ولا تنفعُ، ولا تضرُّ، ولا تقدرُ على شيء، بما يدلُّ على إصرارهم على شركهم ومكابرتهم، وقُبحِ حالهم وحُمقهم؛ إذ إنَّ طولَ الزَّمنِ من شأنه أنْ يُظهرَ حقائقَ الأشياء، وللدَّلالة كذلك على تصويرِ خضوعهم لمن لا ينفعُهم، ولا استطاعةَ له على ذلك؛ ليحملهم هذا التَّصويرُ على النُّفورِ من الباطل، والرُّجوع إلى عبادةِ الحقِّ سبحانه الذي هو العليُّ الكبير.

إفـادةٌ لتجـدُّدِ تجاهلهم الأدلَّةَ الكونيَّةَ على أنَّ الله هو الحقُّ

وفي هذا التَّجدُّدِ أيضًا إفادةٌ لتجدُّدِ تجاهلهم ما هو معروضٌ عليهم ليل نهار من أدلَّةٍ كونيَّةٍ على أنَّ اللهَ هو الحقُّ، وأنَّ ما يعبدون من دونه هو الباطل، فإنَّهم تتجدَّدُ لهم رؤيةُ ولوجِ الليل في النَّهار، وولوجِ النَّهار في اللَّيل، ومع ذلك يتجدَّد دعاؤهم وعبادتهم لآلهتهم من دون اللهِ، وفي هذا كلُّ تقبيحٍ وذمٍّ لهم وتعجُّب منهم وتشهير بهم وما جرى في هذا الطريق من المعنى.

عودُ الضَّميرِ في ﴿يَدۡعُونَ﴾:

مَن عبدَ حقيرًا؛ صار حقيرًا

يعودُ الضَّميرُ (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ﴾ إلى الكفّارِ الذين جمعوا بين الكفرِ باللهِ والتَّكذيبِ بآياتهِ القرآنيَّة والكونيَّة، والذين مَرَّ ذِكْرُهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾، وذكرهم القرآنُ بالضمير، ولم يذكرهم بوصف الكُفْر أو نحوِه؛ لتحقيرهم بإبهامهم؛ اتِّساقًا مع تحقيره ما يدعون من دون اللهِ.

نكتةُ حذفِ مفعول ﴿يَدۡعُونَ﴾:

مَـــن بـــان لـه الـحـقُّ؛ وجـب صَـــرْفُ الباطل من نفسه

حذَفَ البيانُ الإلهيُّ مفعولَ ﴿يَدۡعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾، والتَّقديرُ: (يدعونَ من دونه إلهًا)[1]، وذلك اختصارٌ؛ لأنَّه معلومٌ من السّياق؛ إذ معنى قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾: الثّابتُ في الإلهيَّةِ، ويكون معنى هذه الآية: وأنَّ ما

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 4/ 77.

يعبدون من آلهةٍ غيره باطلةٌ[1]، وكذلك لتحقير شأنِ هذا المعبودِ من دونِ اللّهِ من أنْ يُذكرَ بمُسمَّى الآلهة، وأنَّه لا يكون المدعو من دونِ اللّه إلّا باطلًا، وفي الحذف إشعارٌ بكمال نفي التَّسوية بين الإلهِ الحقِّ والآلهة الباطلة.

فـاز المُستجيبُ لـلـه، وخـسِـر المُعْرِضُ عنه

بلاغةُ توجيهِ القراءات القرآنيَّة في ﴿يَدْعُونَ﴾ وبلاغتها:

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ قراءتان متواترتان؛ إذ قرأ نافعٌ وابنُ عامر وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفرٍ: ﴿تَدْعُونَ﴾ بالتّاءِ الفوقيَّة على الالتفاتِ إلى خطابِ المُشركين؛ لأنَّ الكلامَ السّابق الذي جرَتْ عليهم فيه ضمائرُ الغيبةِ مقصودٌ منه إسماعُهم والتَّعريض باقترابِ الانتصارِ عليهم، والمعنى: وأنَّ الذين تدعونهم آلهةً - وهي الأصنامُ - هو الباطلُ الذي لا ثبوتَ له[2]، وفي الالتفاتِ من الغيبةِ إلى الخطابِ تنبيهٌ شديدٌ وتهديدٌ بالمواجهةِ والتصدّي لبيانِ شرِّهم؛ إذِ التَّنبيهُ والتَّهديدُ بالمواجهة أشدُّ من التَّهديدِ بالغَيبة، وأكثرُ توبيخًا، وللإيماءِ بأنَّ حالهم لا يغيبُ عنه سبحانه، وقرأ البقيَّةُ بالتَّحتيَّة ﴿يَدْعُونَ﴾ على طريقةِ الكلام السّابق، وهي الإخبارُ عنهم بالغيبة[3].

السّورة مؤسَّسَةٌ عـلـى الأمـر بـالـخـوف من المُحسِن ﷻ

ويصحُّ أن يكون في الخطاب تقريبٌ لهم، وإقبال عليهم؛ ليدخلوا في زمرة العابدين للّه الذي هو الحقُّ؛ لأنَّ السورة مؤسَّسَةٌ على الأمر بالخوف من المُحسِن المُنعِم المُربي ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُۚ﴾ [الحج: 1].

مـن أهـل الـكفرِ مَـن سيكون من أهل الخطابِ في الآية

ومجموعُ القراءتَيْنِ يشيرُ إلى أنَّ أهل الكفر منهم مَن سيكون، أو سوف يكون من أهل الخطاب، حيثُ يستجيب لنداء الحقِّ، ومنهم مَن سيظلُّ في مستنقع الضَّلال والكفر، فيظلُّ غَيْبًا يُحْكَى عنه، أو يُدْعَى إلى الحقِّ والإيمان.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5017.
(2) الهروي، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 18/ 406.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/327، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 317.

دواءُ الغافلِ التَّنبيهُ والإيقاظُ

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ بيانيَّةٌ؛ إذ بيَّنتْ ما أُبهم في ﴿مَا﴾[1]، وهو الذي يدعونه دعاءَ عبادةٍ بأنَّه غيرُ اللّه سبحانه، وإنَّما هي أصنامٌ من دونِ اللّه، ليس لها في ذاتها ونفعها إلّا العدم، ويمكن أنْ تكونَ للتَّأكيد، إنْ كانت (دون) بمعنى غير، والمعنى: وأنَّ ما يدعون غيرَ اللّهِ هو الباطل.

من الإحسانِ إلى الغافلِ تمكينُ المعنى في نفسه

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

استعملَ البيانُ القرآنيُّ مع المدعو من دونِ اللّه تعبيرَ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ الذي يفيدُ الدّونيَّة والاحتقارَ، وأضافها إلى الضَّميرِ العائدِ إلى اللّه؛ تحقيرًا لمَنْ يدعون الباطلَ من هذه الأصنام وغيرها، ويتركون عبادةَ مَنْ هو فوقَ كلِّ شيءٍ بقهره وسلطانه، وكلُّ ما سواه سافلٌ حقير تحت قهره وأمره[2]، وتحقيرًا لِما يدعون من الباطلِ الذي ليسَ له في ذاته إلّا العدم، وبالمقابلِ هو بيانٌ لعلوِّ اللّهِ وعظمةِ قهره وسلطانه، ومدحٌ لمنْ يدعونه سبحانه، ولذلك ذيَّل الآية بقوله: ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

غُلوُّ التَّوكيدِ لسَفالة الغَفْلَةِ

بلاغةُ القَصْرِ بضمير الفصْلِ وتعريف الخبر:

ضميرُ الفصل ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ يفيدُ القصرَ، وهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ؛ لعدَمِ الاعتدادِ بباطلٍ غَيرِه، حتَّى كأنَّه ليس من الباطلِ، وهذه مُبالَغةٌ في تَحقيرِ أصنامِهم[3]، أو أنَّ جَميعَ ما يَدّعونَ من دونِهِ هو الباطِلُ لا بَعْضُهُ دونَ بَعْضٍ، أو باعتبارِ كمالِ بطلانِ ما يدعونَ من دونِ اللّه[4]، والقصرُ بهذه الاعتباراتِ يدلُّ على توكيدِ أنَّ ما هم عليه هو الباطل؛ لزيادةِ

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 199.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 82.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 316.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 182.

تثبيتِ المؤمنين؛ لأنَّ الكافرين هنا كانوا ساعينَ مُعاجزين، ونتجَ عن ذلك هجرةُ المؤمنين أو قتلهم، فاحتاجَ الأمرُ إلى هذا التوكيد[1]، أو أنَّه قد جيءَ به للمشاكلةِ مع ما وردَ في الآية ذاتها[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡبَٰطِلُ﴾:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطل

لامُ التَّعريفِ في لفظ ﴿ٱلۡبَٰطِلُ﴾ في قوله جلَّ ذِكْره: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ جنسيَّةٌ تُفيدُ العموم[3]، فتشملُ كلَّ ما لا وجودَ له حقيقةً، فتعني الشِّرك، والكذب، كقوله: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264]، ويشملُ كذلك الظُّلم، وما فسَّرَ به بعضُ المُفسِّرين بأنَّه الشَّيطان، أو ما أشركوا باللّه تعالى من الأصنام والأوثان[4].

بلاغةُ الطِّباق بين الحقِّ والباطل:

وجـهُ الـوقـوفِ على الحقيقة أن تتأمَّل

جمعَ البيانُ القرآنيُّ بين لفظَيْن مُتقابلَيْن في المعنى، هما الحقُّ والباطل زيادةً في بيانِ معنى الحقِّ والباطل، أيْ: حقّيَّةُ إلهيَّة اللّهِ سبحانه الذي يقدِرُ على كلِّ شيء، وبطلانُ دعوتهم لآلهةٍ مزعومةٍ لا تقدرُ على شيءٍ، بل هي في حُكمِ العدم؛ لأنَّ الضِّدَّ يُظهرُ حقيقةَ الضِّدِّ؛ فإنْ قلنا: إنَّ اللّهَ هو الحقُّ حقيقةً، فما سواهُ باطلٌ، وإنْ قلنا: إنَّ الحقَّ هو الحسنُ شرعًا، فالباطلُ هو القبيحُ شرعًا[5]، والقَرْنُ بين متقابلَيْن يُحرِّك النَّفس؛ لأن تبحثَ في كلِّ طرف في نور مقابله، فيبلغ ظهورُ المعنى لها مبلغًا عظيمًا، فيتمكَّن المعنى فيها تمكُّنًا، ففي ذلك إحسانٌ إلى المعنى والمتلقي جميعًا.

أيُّ إحسان في إثبات حقارة ما دون الله وبطلانه؟

(1) السّامرائيّ، معاني النحو: 1/ 53.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 182.
(3) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 131، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 187.
(4) الماوردي، النُّكت والعيون: 4/ 346.
(5) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 8.

معنى الواو في ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾، والمعطوفُ عليه معطوفٌ على ما عُطف هو عليه، وهو قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، وكلاهما ينتجُ مضمون: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾، فكان الظاهرُ غيابَ الواو لما بينهما مِن كمال الاتِّصال، وقد رمَى النَّظْمُ الكريم إلى أن تتنبَّهَ نفوسُ الكافرين خاصَّةً لهذا المعنى، وتعتني بالنَّظر والبحث، كما اعتنى هو به بتصديره بالواو وإدخالها عليه، وهذا المعطوف يُقرِّر، ويُحقِّق المعطوف عليه المباشر له؛ لأنَّه يشرحُ كونه باطلًا بإثبات معنى الاسمَيْن: ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ لله، وهذا الإثباتُ يُفْهِم نفيه عمّا يدعون مِن دونه مِن الباطل، فبينهما كمالُ اتصالٍ خفي.

نكتةُ إدخالِ فاصلة الآية في حيِّز السَّببيَّة:

قد يكون المُسبِّب سببًا؛ إذا قويت السَّببيَّة

دخولُ فاصلة الآية: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ في حيِّزِ السَّببيَّةِ من خلالِ عطفها على الخبرِ، وهو جملة ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، جعلها مِن تمام ما قبلها وتوكيدًا له، أي: ذلك المذكورُ من قدرةِ اللهِ الباهرةِ على إيلاجِ الليل في النَّهارِ، وإيلاجِ النَّهارِ في الليلِ بسببِ أحقيَّته سبحانه للألوهيَّة، وبطلانِ ما يعبدونه، وبسبب كونه تعالى وحده مستعليًا على جميعِ الأشياء متسلِّطًا عليها مُتنزِّهًا عن أنْ يكون له سبحانه شريكٌ، أو يتَّصفُ بنقصٍ ﷻ، أي: إنَّ ذلك يستلزمُ كونه تعالى وحده واجبَ الوجود في ذاتِهِ الموجِد لسائرِ المصنوعات البديعةِ الشأنِ، فيدلُّ على كمالِ قدرته ﷻ[1]، وجعلُها سببًا صورةٌ لكمال ما قام من الدَّليل عليها من قبلُ، أيْ: أن تلقي مِثْل هذا المعنى بعد الاستدلال عليه، من شأنه أن يصرف ما بقي في قلوبهم من

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 102.

كفرٍ وشركٍ وتوابعهما، وهذه مراقبةٌ نفسيَّةٌ دقيقةٌ لا تكون إلّا من اللطيف الخبير.

ينبِّههم الله تعالى للحقِّ وهو مُستغنٍ عنهم

فائدةُ تتابعِ المؤكِّدات في فاصلة الآية:

أكَّدَ البيانُ القرآنيُّ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ بعِدَّة مؤكِّدات، هي: حرفُ التوكيد (أنَّ)، والجملةُ الاسميَّةُ التي تُفيدُ الثُّبوتَ والدَّوام، وصيغةُ المبالغة في الاسمَيْن ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ و﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ اللَّذيْن جاءا على وزن (فعيل)، وتكرارُ خبرِ الجملة الاسمية؛ إذ إنَّ ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ خبرٌ ثانٍ، على اعتبارِ ﴿هُوَ﴾ مبتدأ لا ضمير فصلٍ، وأيضًا التوكيدُ بضميرِ الفصلِ ﴿هُوَ﴾؛ إنِ اعتبرَ كذلك، وبتعريفِ طرفي الجملة اللَّذيْن يدلّان على قصرِ العلاء والكبرياء في ذاته سبحانه.

التَّنبيهُ على كمال ظهورِ أنَّ الله هو العليُّ الكبير والمبالغة في تأكيد تعظيم نفسِهِ

وفي تتابع التأكيدِ تنبيهٌ على كمال ظهور أنَّ الله هو العلي الكبير للمُتلقّين، أفلا يعملون بمقتضى ذلك مِن اعتقاد الإيمان، والدخول في جماعة المؤمنين؟ وهذه المؤكِّدات مجتمعةً تفيدُ أيضًا المبالغةَ في تأكيدِ تعظيمِ نفسه، وأنَّه المتعالي عن مداركِ العقول، وسماتِ الحدوث، والمرتفعُ على كلِّ شيء بقهريته، والمتعالي على الأندادِ والأشباه، والكبيرُ شأنًا وعظمةً وكبرياءً؛ إذ كلُّ شيءٍ يصغرُ دون كبريائه، فلا شيءَ أعلى منه شأنًا وأكبرُ سلطانًا؛ لأنَّ له الوجود المطلق[1]، وهذه المبالغةُ في تعظيمِ العليِّ الكبيرِ تطمينٌ للمؤمنين بأنَّه سبحانه لنْ يدعَ البغيَ يستعلي، والظلمَ يستطيلُ.

كلُّ عُلوٍّ وكبرٍ عند غير العليِّ الكبيرِ كالعدم

بلاغةُ القصرِ بضمير الفصل وتعريف الخبر:

اجتلبَ البيانُ القرآنيُّ ضميرَ الفصل ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ وعرَّف طرفي الجملة؛ للدَّلالة على القَصْرِ،

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 549.

فكان العلاءُ والكبرياءُ مقصورَيْن عليه وحده؛ إذ كلُّ مخلوقٍ سِواهُ مُستمِدٌّ وجودَهُ منه، ووجودُه غيرُ باقٍ، فهو سبحانه الباقي وحده، وهو وحده واجبُ الوجودِ، أيْ: دلَّ على الاختصاصِ وانحصارِ العلاء والكبر بذاتِهِ وصفاته فيه وحده[1]، وسلْبِ العُلوِّ والعَظَمَة عن أصنامهم[2]، وهذا هو الأصلُ الذي ينتهي إليه المتلقي من أهل الكُفْر والشِّرْك خصوصًا بعد الاستدلال في السِّباق عليه، وبعد الاستدلال في اللّحاقِ عليه أيضًا، ويقوم في نفسه، ويرسخ فيها.

مِن شأن (العلي الكبير) أن يعودَ على جميع ما في السّياق بالتَّوكيد

نكتةُ التَّذييل بـ ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾:

ناسَبَ التَّذييلُ بقولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ بالاسمَيْنِ الجليلَيْنِ ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ مضمونَ الآية، حيث يدورُ سياقُها حولَ تحقيرِ المعبودينَ من دونِ الله، وتنزيهِ اللهِ عن مثلِ هذه الشِّركيّات، إضافةً إلى أنَّها عبَّرتْ عن اللهِ بلفظِ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾، وهو الثّابت الَّذي لا يتغيَّر، واستعملتْ مع المدْعوِّ غير الله تعبيرَ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ المفيدَ للدونيَّة والاحتقار، ولذا خُتِمَتِ الآية بالاسمين الجليلين ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ اللَّذيْن يُفيدان ترفُّعَ اللهِ وعُلوَّه عن مثل هذه الصِّفات، وتأكيدَ حقيقةِ "أنَّ ما سوى الله سافلٌ حقيرٌ تحتَ قهرِهِ وأمره"[3].

التـذييـلُ بهما واقــعٌ مـوقـعَ الفذلكة

كما أنَّ التذييلَ بهما واقعٌ موقعَ الفذلكةِ؛ لأنَّه إذا استقرَّ أنَّ ما ذُكرَ من إيلاجِ الليلِ والنهارِ دالٌّ على أنَّ اللّهَ هو الحقُّ بالإلهيَّة، ودالٌّ على أنَّ ما يدعونه باطلٌ، ثبتَ أنَّه العليُّ الكبير دون أصنامهم[4].

تفخيمٌ وتعظيمٌ للمقصودِ إثباتُهُ من أنَّ الله هو الحقُّ

وفي تذييل الآية بهما تفخيمٌ وتعظيمٌ للمقصودِ إثباتُه من أنَّ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5017.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 187.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 82.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 187.

اللّه هو الحقُّ؛ وتشديد وزيادة في إثباته؛ لأنَّ هول السّاعة وزلزلتها شيءٌ عظيمٌ.

مَن قام في نفسه معنى (العلي الكبير)؛ علا عن عبادة الباطل وعظُم بذلك

فائدةُ تقديمِ ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ على ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾:

اقترنَ اسمُ اللّهِ ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ باسمِ اللّه ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ في أربعةِ مواضع في القرآن الكريم[1]، واقترنَ باسم اللّه (العظيم) في موضعَيْن[2]، وقد تقدَّم فيها كلِّها اسمُ ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾، أي: إنَّ تقدُّمَه عادةٌ قرآنيَّةٌ، وأيضًا في تقدُّمه في هذه الآية ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ مناسبةٌ لِما وردَ في سياقها من ذِكْرِ لفظِ الدّونيَّةِ عند الحديثِ عن المعبودين من دونِ اللّه، ولأنَّ العَليَّ من صفاتِ السلوبِ، فهو المُنزَّهُ عن صفاتِ الحوادث، والكبيرُ: هو المُتَّصفُ بالعَظَمَةِ والكبرياء، فتقديمُ ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ من بابِ تقديمِ التَّخليةِ على التَّحلية.

(العليُّ) دليلٌ موصلٌ إلى (الكبير)، وفي التَّرتيب مراعاةٌ للفاصلة

ويصحُّ أن يكون ترتيبهما ناظرًا إلى جعل أولهما دليلًا موصِّلًا إلى الثّاني، فهو العَليُّ على جميع الأشياء، وكان مِن شأنه أن يكون كبيرًا عن أن يكون له شريكٌ يُعبد مِن دونه، وكذلك في تأخيرِ اسمِ اللّهِ الكبيرِ في الآية مناسبةٌ للفاصلةِ القرآنيَّة القريبة منها ﴿غَفُورٌ﴾ و﴿بَصِيرٌ﴾ و﴿خَبِيرٌ﴾.

كلُّ ما ثبت في حقِّه ﷻ انتفى عن غيره

نكتةُ تعريفِ الاسمَيْن الجليلَيْن ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾:

جاءتِ الصِّفتان في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ مُعرَّفتَيْن؛ للدَّلالةِ على الكمالِ في الوصف، فهو سبحانه العليُّ الكاملُ في عُلاه على كلِّ شيءٍ بقدرتِه وذاته، المُتقدِّسُ عن الأشباهِ والأندادِ، وهو الكبيرُ الكاملُ في كِبَرِه، ذو الكبرياءِ الذي يصغرُ كلُّ شيءٍ سواه، وفي بيانِ كمال عُلوِّه وكِبَره سبحانه نعيٌ الكافرين؛ إذ يُعرضون عن عبادةِ الكاملِ في علوِّهِ وعظمته؛ ليعبدوا من دونه أصنامًا في حكمِ

(1) الحج، الآية: 62، لقمان، الآية: 30، سبأ، الآية: 23، غافر، الآية: 12.
(2) البقرة، الآية: 255، والشورى، الآية: 4.

العدم[1]، وإنَّما عُرِّف هذانِ لاقترانهما بـ ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾؛ إذ القصدُ بيانُ كمال حقارة الباطل وضعفه وبطلانه، وأنَّه لا شيء يُذكَرُ بالنِّسبة إلى اللّه تعالى، فهو نكرةٌ، أو عدم.

توجيهُ المتشابه اللفظي:

أقام سبحانه في كلامه ما يدعو إلى تأمُّلِهِ كما في كونه

وذلك بين قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾، وقوله في سورة لقمان ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ﴾:

إنَّ الاختلافَ بين قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ وقوله تعالى في سورة لقمان: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ [لقمان: 30]: إنَّما هو إضافة ضمير الفصل في ﴿هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ الذي يفيدُ التَّوكيدَ في سورةِ الحجِّ دونَ آية لقمان، وهذا إمّا لأنَّ ما في سورةِ الحجِّ قد وقَعَ بعْدَ عشْرِ آياتٍ، كلُّ آيةٍ مُؤكَّدةٌ مرَّةً أو مرَّتيْنِ، فناسبَ ذلك ذِكْرَ ضميرِ الفصل، وليس كذلك ما جاء في سورة لقمان؛ لأنَّه لم تتقدَّمه التَّوكيدات التي تستتبعُ أمثالها، كما تقدَّمت في الأولى[2].

أو أنَّه لَمّا تقدَّمَ في هذه السّورة ذِكْرُ اللّهِ سُبحانَه وذِكْرُ الشَّيطانِ؛ أكَّدَهما، فإنَّه خبَرٌ وقَعَ بين خَبرَيْنِ، ولم يَتقدَّمْ في لُقمانَ ذِكْرُ الشَّيطانِ، فأُكِّدَ ذِكْرُ اللّهِ تعالى، وأُهْمِلَ ذِكْرُ الشَّيطانِ، وهذه دَقيقةٌ[3].

أو أنَّه لم يتقدَّمْ في آيةِ الحجِّ من الدَّليلِ على بُطلانِ الأوثانِ مِثْلُ ما ذَكَرَه في لُقمانَ؛ ولذا استدعى الحالُ في آيةِ الحجِّ التَّأكيدَ بضَميرِ الفَصلِ، فقال ﴿هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾[4].

(1) القِنَّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 9/ 74.
(2) الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، ص: 930، 931.
(3) الكرماني أسرار التكرار في القرآن، ص: 183.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 80.

أو لأنَّ السّياقَ في سورة الحَجِّ في الهجرةِ والقتلِ والموتِ والتَّكذيبِ بالآياتِ، وصراعِ أهلِ الباطل، أمّا السّياقُ في سورة لقمان؛ فهو في اتِّباعِ ما أنزلَ اللّهُ تعالى، أو اتِّباعِ الشَّيطان، وليس سياقَ جدالٍ لإظهارِ الحقِّ من الباطل، فهو أقلُّ شدَّةً وقوَّةً، ولذلك أكَّدَ في آية الحجِّ بإضافةِ ﴿هُوَ﴾، ولم يُؤكِّدْ في آيةِ لقمان.

العبادةُ إظهارُ الطاعةِ والخضوع، والدعاءُ أعمُّ وأوسع، فيشملُ العبادةَ وغيرها

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(يدعون) و(يعبدون):

يتقاربُ لفظا (يدعون)، و(يعبدون)، وقد يُستعملُ كلٌّ منهما موضعَ الآخر، ومع هذا التَّقاربِ فإنَّ لكلِّ لفظٍ ما يُميِّزه، وذلك على النحو الآتي:

الدُّعاءُ أصلُهُ أنْ تُميلَ الشَّيْءَ إلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنْكَ[1]، ومعناه المحوريُّ: جذبُ الشيءِ، أو محاولةُ ضمِّهِ إلى حيِّزٍ أو أمرٍ، كجذبِ النّاس إلى الوليمةِ والاجتماع، والسَّوق إلى الأمير، ومنه الدُّعاءُ بمعنى التَّضرُّعِ إلى اللهِ ﷻ في طلبِ أمرٍ، والرَّغْبَةُ إلى اللّهِ تعالى فيما عنْدَه من الخيْرِ والابْتِهال إليه بالسُّؤالِ، والدُّعاءُ: العبادةُ؛ لأنَّ العبادةَ تَقرُّبٌ إلى المعبودِ واعتزاءٌ إليه واستكفاءٌ به، فهي من الجذبِ والانجذاب، ويأتي بمعنى النِّداء استلفاتًا أو استحضارًا أو استنهاضًا، والدُّعاءُ: النِّداءُ والتَّسميةُ، يُقال: دعوتُه زيدًا، ودعوته بزيدٍ؛ إذا سمَّيته به[2].

وأمّا العبادة؛ فأصلُها يَدُلُّ على لينٍ وذُلٍّ، ومنه طريقٌ مُعبَّدٌ، وهو المَسْلوكُ المُذَلَّلُ[3]، ومعنى العبادةِ في اللُّغةِ: الطاعةُ مع الخُضوعِ، والعَبْدُ: الإنسانُ، حُرًّا كانَ أو رَقيقًا[4]، وأصلُ العُبوديَّةِ: الخضوعُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).
(2) الزبيدي، تاج العروس، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (دعو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبد).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عبد).

والذلُّ، والعِبادة: الطاعةُ، والتَعَبُّدُ: التَّنَسُّكُ[1]، والعِبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غاية التَّذلُّلِ، ولا يستحقُّها إلّا مَن له غايةُ الإفضال[2].

والحاصل: يتميَّز لفظُ الدُّعاءِ بمعنى إرادةِ جذبِ الشَّيء وميله إليه، ويأتي بمعنى العبادةِ والتَّضرُّع، وأيضًا بمعنى النِّداءِ والتَّسميةِ والسُّؤالِ والاستعانةِ، ويتميَّزُ لفظُ العبادةِ بمعنى اللّينِ والطَّاعةِ والخضوعِ والتَّذلُّل، فالدُّعاءُ أعمُّ وأوسعُ دلالةً من العبادةِ؛ لأنَّ الدُّعاءَ يشملُ معنى العبادة وغيرها، كالاستغاثةِ والنِّداءِ والسُّؤالِ والاستعانةِ والتسميةِ، بخلافِ العبادةِ التي معناها إظهارُ الطاعةِ والخضوعِ والتذلُّلِ لله.

(1) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (عبد).
(2) الراغب، المفردات: (عبد).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»